المشرق

السيد اثناسيوس سفر العطّار الماردينيّ

بقلم حضرة القس اسحق ارملة السرياني الكاثوليكي

لما اوشك نبراس الكنيسة الكاثليكية ان يخبو في الامة السريانية وصارت على شفا الانقراض والاضمحلال اراد الله عزَّ وجلَّ ان يعيد اليها نضارتها السابقة فاقام في اوائل القرن السابع عشر واواخر الثامن شهيرين اجلّاء تنافسوا على زيادة مجده وسعوا السعي الحثيث في توسيع نطاقه. وقد اشتهرت بذلك مدينة ماردين خاصّة فان تربتها الصالحة انبتت كماةً ذبّوا عن الدين القويم وكبتوا انصار الضلال فطار ذكرهم في الآفاق واستحقّوا اطيب الثناء واطول الشكر واصبح وطنهم يفاخر بهم ويتمدح بخصالهم ويباهي بمناقبهم. وانا لنضرب صفحًا عن تعداد القديسين وأئمة العلماء الذين خرجوا منها ونأتي الى ذكر الممتازين بالفضل والفضيلة في اوائل الكثلكة فقط

فقد ورد في اخبار الطائفة الارمنيَّة الكاثوليكية (١ ان السيد ملكون طازباز امام احبارها وشهيد ايمانها ذا المناقب الحسناء والخصال الحميدة هو اوّل من ألقى بذر الكثلكة الارمنيَّة وعكف على سقيه بهمّة لم يفترها ملل. وعليه قرأ العلوم ستة اعوام ابراهيم ارزيشيان العينتابيّ اوّل بطاركة قيليقية على الارمن الكاثوليك وبواسطته اعتنق الارمن الكثلكة اعتناقًا ثابتًا بعد تردُّدهم. وتالله شداند فادحة وحزن كثيرة. ولشدة حرصه على الايمان البطرسي ابعده اعداؤه عن وطنه وبقي منفيًا الى ان توفّاه الله عام ١٧١٤

(١ المشرق (٣: ٥٢)

وفي الطائفة الكلدانيَّة العريقة في القدم في تلك البلدة اشتهر القس جبرائيل دمبو (١ القديس الآبر والبطل المقدام والشهيد العظيم الذي اسس الرهبانيَّة الانطونيَّة الكلدانيَّة ونال من غريغوريوس السادس عشر تثبيتها . وقام منها رجال فضل امتازوا بالتقى وازدانوا بالمعارف . ولم يبرح يتجشم الاتعاب حبًّا بفلاحها وتوطيدها حتى فاز باكليل الشهادة عام ١٨٣٢

اما الذين امتازوا في طائفتنا السريانية بالمناضلة عن الدين الحقّ وبثّ كلمة الله فهم كثيرون: منهم اغناطيوس اندراوس اخيجان الذي أقيم بطريركًا في ٢٠ آب ١٦٦٢ توجه من حلب الى بلاد ما بين النهرين حتى وصل الى ماردين وطنه فاجتمع اذ ذاك بالمتكلكين نخصّ بالذكر منهم ارسان والشماس سليمان نجلي الخوري سفر والشماس عبد النور وحنا العطّار وسواهم وكانوا يتردّدون خفيةً الى بيعة الكلدان . وقبل مبارحة البطريرك ماردين رغب ان يرسم لهم قسيساً فانتخبوا الشماس سفر ابن المقدسي حنا العطّار الذي همنا بان نذكر قصتهُ (٢ . وكان آنئذٍ مقيماً في تفليس فوعدوه بارسالهِ اليهِ واشاروا عليهِ ان يعدل عن التوجه الى الموصل فعاد الى حلب وقصّ على المرسلين خبر رحلتهِ واوضح بان الامل وطيد في اكتساب قاطني تلك البلاد الى الديانة الكاثوليكيَّة

اما الشماس سفر صاحب الترجمة ففي سنة ١٦٧٧ اتى الى ماردين وعمرهُ اذ ذاك سبع وثلاثون سنة فارسلهُ الاهالي الى حلب ليقبل الكهنوت من البطريرك المغبوط نجارًا للعهود بيد انهُ لسوء الحظ لما وصل الى حلب ألفى البطريرك طريح الفراش. وما عتم ان انتقل الى الاخدار السماويَّة بعد أيام معدودة . فتخلّف الشماس سفر في حلب حتى قام البطريرك بطرس الرابع المذكور في الخير فتوجه الى الاستانة العليَّة ليستردّ الكنيسة من يد عبد المسيح بطريرك اليعاقبة الدخيل

وعام ١٦٧٩ اتى الى حلب السيد فرنسيس بيكات (Fr. Picquet) قاصدًا

---

١) المشرق (٣: ٨٨٦)

٢) اتا نثني الطيب الثناء على سيادة مار افرام نعاشه مطران حلب الجليل الذي تنازل واجاب الى بعض سؤالات التي سألناها من سيادته . وهي مدرجة بالضبط والثناء في القسم الثالث من تاريخه الكبير

بابل و بلاد الفرس (١ فاتخذ الشماس سفر ترجمانًا له مدَّة اقامتهُ بحلب وعام ١٦٨٢ توجه السيد پيكات الى ابرشيته وترك الشماس سفر ترجمانهُ ينتظر هدايا اويس الرابع عشر ملك فرنسا ليحملها الى صوفي شاه العجم ويترقب قدوم البطريرك المغبوط ليرقيهُ الى الدرجة الكهنوتيَّة

فلمَّا رجع البطريرك غانمًا ظافرًا الى حلب رسمهُ في تلك السنة قسيسًا مع ثلاثة شمامسة كانوا قد قرأوا العلوم في المدرسة الاوربانيَّة وارسلهُ من ساعتهِ الى اصفهان حاملًا الهدايا الى السيد پيكات . واستمرَّ القس الجديد معهُ سنتين ثم آب الى حلب في تموز ١٦٨٤ حاملًا رسائل توصية من السيد المذكور (الذي كان حينئذٍ في همذان) الواحدة الى ملك فرنسا والاخرى الى الاب سيڤن في رومة واليك نصها : «اكتب اليك بواسطة القس سفر . أوصِ المجمع المقدَّس ان يحتفي بهِ و يكرم مثواه و يعوّضهُ من النفقات التي انفقها . . اعلم انهُ ربَّان من العلوم الشرقية قدير على القاء الخطب بالعربيَّة والتركيَّة وقد ندب مرارًا الى الاسقفية (٢ »

فلمَّا وصل الى حلب اغتنم الفرصة مار بطرس الرابع ورقاه الى الدرجة الاسقفيَّة ودعاه باسم اثناسيوس سفر ووكل اليهِ رعاية ماردين ونصيبين ونواحيها . ودفع بيده كتاب الوسطائيقون (٣ واليك نسختهُ بتصرُّف :

اغناطيوس بطرس الضئيل عبد عبيد الربّ يسوع المسيح وبرحمتهِ تعالى السابغة بطريرك الكرسي الانطاكي

نهدي السلام والتحيات والصلوات والبركات الى اولادنا المحبوبين المباركين الكهنة والشمامسة والاراكنة والمشايخ والرجال والنساء والشبان والاطفال الذين هم تحت ظلّ مراحم القدوس مستترون وفي مدينة ماردين العامرة ساكنون اعني الثلاث مراعيث (خورنيَّات) مرعيث الاربعين شهيدًا ومرعيث مَرْت شموني ومرعيث مار ميخائيل وسائر القرى اي القصور وقلعة المرأة والقصوريَّة وبنابيل ودير هليا وكليبث وقرى مشوق والابراهيمية وما يليها من القرى فلتحرسهم

---

١) المشرق (٧ : ٨٧٩)

٢) الآثار الحقليَّة للاب انطون رباط اليسوعي (جزء ١ ص ١٠٤)

٣) الوسطائيقون (Διαστατικόν) كلمة يونانيَّة تفسيرها رسالة التوصية ويراد بها الكتاب الذي يدفعهُ البطريرك بيد الاسقف الذي يرسمهُ حديثًا دلالة على تأييد الرسامة

العناية الربانيّة وتحفظهم بالملائكة المقرّبين آمين . اما بعد فنتهي الى اماتكم الصادقة بان معلم الاسرار الالهيّة بولس الرسول جنف قائلًا : « ليس الامر يد من يشاء ولا يد من يسعى بل يد الله المترحم (رومية ٩ : ١٦) الذي من عنده تهبط كل عطية صالحة وكل موهبة كاملة (يعقوب ١ : ١٧) بوساطة الروح القدس الذي لمّا رآنا مرتبكين في امر انتخاب راعٍ صالح ومدبّر فالح لنقيمهُ على كنش (جماعة) ماردين المبارك التي هي منذ القديم فخر المرابيع وجمال يفتخر كل المؤمنين من اجل ايمان سكّانها وتمرّسهم على حفظ القوانين الرسليّة والنواميس المقدسة والاوامر الانجيلية ألهمنا ان نختار لكم اسقفاً برعاكم فلمعنا شخص ولدنا المبارك الاسقف سفر واتعش خاطرنا بهِ وفاضت محبتنا عليهِ كما فاضت قارورة الطيب يد صموئيل النبي على داود (١ ملوك ١٦ : ١٣) وترآى لنا ان هذا المنتخب هو مكين للروح القدس وقد اصطفاه الربّ من حشا امهِ لهذه الخدمة . وانهُ يستحق الرئاسة الكهنوتية بكل صواب من اجل كمالهِ بالمحاسن والاعمال المبرّية والفضائل المسيحيّة المتنوّعة والعلوم الربّانيّة والعاليّة وتفاسير الكتب المقدسة . ولذلك تواترت الاصوات وتوالت لكون دعوتهِ من روح القدس قد دُعي مار اثناسيوس ويستحق الاسم كما استحق الدعوة . والآن زعقنا نحن والاساقفة الحاضرون « اكيوس اكيوس اكيوس » يستحق ويستوجب الراعي ورئيس الكهنة مار اثناسيوس . وقد أُعطي السلطة من روح القدس بواسطة حقارتنا مثل الرسل القديسين ان يربط ويحلّ ويحكم ويكرّس قسوساً وشمامسة ورهباناً ويقدّس مذابح وكنائس ويأخذ من الزيجات حقّ الافلاية من مرعش ماردين وما يليها . فالذي يُربَط ويُحرم من هذا الاسقف يكون مربوطاً ومحروماً من الله ومن حقارتنا . وليس لهُ غفران الّا من هذا الاسقف . والذي يبارك عليهِ يقبل البركات من الله والصلوات من ضمننا

ويجب عليكم ان تفرحوا وتشكروا الله وتحملوا اغصان الشمانين وتستقبلوا هذا الراعي الصالح وتصرخوا قائلين « اكيوس اكيوس اكيوس » مثلما زعقنا نحن والاساقفة في وقت تكليلهِ . واعلموا اننا قد وضعنا كلمتنا في فمهِ فينبغي ان تسمعوا لهُ وتوقروه . وتتوسّل اليهِ تعالى ان يكون قدومهُ اليكم باركاً . بهِ يتمّ فرحكم ويضمحلّ حزنكم وتنمو افكاركم وتنجح اعمالكم وتزكو غلاتكم وتُنمّى اثمكم وتتربّى اطفالكم

ونعلمكم اننا قد وهبنا ولدنا السيد مار اثناسيوس ان يسلك طريق الحق ولا يخترع بدعة او عوائد غير سليمة بل يسير في طريق الاباء القدماء ولا يطلب من احد شيئاً فوق طاقتهِ . ولا يزدري بطقس الكهنوت ويتمعهُ بالبرطيل وعدم الفطنة ونبالغ في الوصيّة بان تزدادوا محبة نحو اسقفكم وتساعدوه في عمارة البيع والاماكن المقدّسة ونسأل الله ان يحرسكم ويحفظ اولادكم ويسكن اموانكم في بحابح الجنان مع ابينا ابراهيم واسحق ويعقوب بشفاعة معدن الطهر والبركات ام النور الاعظم والحياة القديسة مريم العذراء والدة الله ومار قطرس وقولس ولفيف الشهداء والقديسين آمين والمجد لله دائماً

---

١) همنا يذكر الاسم الجديد الذي لقبهُ بهِ

وذيل السوسطاثيقون بامضائه وخطه ديونوسيوس رزق الله امير خان مطران حلب. وفي آخره كتب غبطة البطريرك ما نصهُ : « لما كانت سنة ١٦٨٥ ثبتنا هذا السوسطاثيقون الذي بيد الاب المكرَّم ولدنا العزيز المبارك مار اثناسيوس سفر ابن المرحوم مقدسي حنا على مدينة العامرة ماردين ونصيبين وسائر القرى وزعتنا مع الآباء والكهنة ثلاث مرَّات: « اكسيوس ». والربّ الاله يجعلهُ مباركاً وسعيداً الى ابد الآبدين آمين » . وهذا السوسطاثيقون محفوظ الى اليوم بكل اجلال في مكتبة مدرسة الشرفة

فاخذ الخبر الجديد كتاب تثبيته اسقفاً وتمم باريس قياماً بما عهد اليه السيد بيكات في ايصال الرسائل الى ملك فرنسا . فلمَّا حضر امامهُ رابهُ امرهُ وتحيَّر في شأنه لانهُ شاهدهُ بزي اسقف مع ان السيد بيكات حرَّر بكونه قسيساً. بيد انهُ وقف على كنه المسألة وتبين انهُ اسقف عند اطلاعه على السوسطاثيقون البطريركي الذي كان دفعهُ اليه مار بطرس الرابع وحينئذٍ هشَّ لهُ واحلَّهُ في بلاطه ضيفاً كريماً واعزَّهُ جداً ولما عزم على الذهاب الى رومة سلَّمهُ كذلك رسائل توصيه الى قداسة البابا انوكنتيوس الثاني عشر بشانه وشأن نصارى البلاد الفارسيَّة . فقوبل ايضاً بالاكرام والترحاب

ولما كان اثناسيوس ميَّالاً الى الاسفار موثرًا عيشة النسك والسوَّاح التمس من رئيس المجمع ان يرخص لهُ في الشخوص الى البلاد الهنديَّة ليجمع صدقات تكفيه لمساعدة السريان الموزين ولانشاء دير ورهبانية للطائفة في مسقط رأسه . وبعد الانتظار الطويل نال الاذن فسافر الى الهند عام ١٦٩١ وأقام خمس سنوات يسعى في قضاء مهمته فانجح الله تعالى مساعيه وجمع طائفة من المال قدرها خمسة وثلاثون الف ريال روماني ثم عاد الى رومية غانماً سالماً

وفي تلك السنة توجه مار بطرس الرابع الى رومة مع غريغوريوس يشوع مصرشاه الحلبي اسقف اورشليم وقصَّا على المترجم ما المَّ بهما وبالسريان الكاثليك من جور اليعاقبة في سوريا وما بين النهرين وبعد ان اجالوا قدح الاستشارة بدا لهم ان بناء الدير في ماردين او في الرها كما كان قد عوَّل عليه المترجم غير مناسب. واتفقوا على تشييده في رومة ليكون مدرسة لابناء الملَّة . فاشترى اذ ذاك السيد اثناسيوس بمساعدة

الكردينال بنفيلي محلًا في أكمة اسكولينو وسماه دير مار افرام وابتنى بجانبه كنيسة وسماها باسم « سيدة الصحة » وجعل فيها مذبحين الواحد لمار افرام والآخر لمار يعقوب النصيبيني ووضع لذلك الدير قوانين دقيقة . ودخلهُ عدَّة من الطلبة الذي زيَّنوا الكنيسة السريانية بمآثرهم وفضائلهم . ومن جملة الذين انفردوا فيه نذكر خاصة المفريان باسيليوس اسحق جبير (١ وغريغوريوس يشوع مصرشاه الذكور آنفًا الذي توفي في ١٧ نيسان ١٧١٥ في نهر التيبر . وغريغوريوس جبرائيل فيزون الدمشقي الذي اقيم بعد المترجم نائبًا رسوليًا والسيد غريغوريوس يوسف قدسي مطران اورشليم وغيرهم كثيرين

واستمرَّ ذلك الدير معمورًا مدَّة مائة سنة الى ان استولى نابليون الاول على رومة سنة ١٨٠٨ ومن ثمَّ فلمَّا لحظ ضبطة الحكومة الايطالية . ولم يتوفق رؤساء الطائفة فيما بعد الى استرجاعه واقتناء غيره في رومة . ومع تمادي الزمان تحوَّل الى بيوت يسكنها الدوام ودُرست آثارهُ ولم يبقَ منها سوى الكنيسة التي هُدمت عام اول وتحولت الى مدرسة لفحص الامراض

ولم يكتفِ اثناسيوس سفر بذلك بل ساعد كثيرًا الطغمة الاقليريسيَّة التي كانت مع مار بطرس الرابع فمن ذلك انهُ عام ١٧٠٩ كتب اليه العلَّامة مار غريغوريوس نعمة قدسي ولفيف الكهنة الذين كانوا محبوسين في اطنه بدسائس اليعاقبة ان يمدَّ لهم يد المساعدة فأرسل اليهم مبلغًا وافرًا من المال فابتنوا دير مار افرام عين الزعفران وسكنوه عازمين فيه عيش الزهَّاد . وليث ذلك الدير مأهولًا نيِّفًا ومائة وثلاثين سنة اي حتى حرقه وانتهابه الذي جرى عام ١٨٤٠ فنُقل ما بقي فيه من الكتب والاواني الى دير الشرفة

وبعد ان استأثرت رحمة الله بالمفريان اسحق جبير سنة ١٧٢١ قلَّد الكرسي الرسولي مار اثناسيوس سفر النيابة الرسولية على الطائفة السريانية برمتها . فدبَّرها سبع سنين احسن التدبير وهو مقيم في رومة

وقد عاش هذا الحبر الفاضل ثماني وثمانين سنة أنفقها في الصلاح والارشاد وخدمة الطائفة حتى طواه ضريحهُ في ٤ نيسان ١٧٢٨ ودُفنت جثتهُ الكريمة في كنيسة الدير

(١ راجع ترجمتهُ في المشرق (١١ : ٢٨٦)

التي شيّدها ووُضعت فوق قبره صفيحة من المرمر منقوش عليها الشمار الاسقفي والكتابة الآتية باللاتينيّة والحروف السطرنجيانيّة واليك نصها :

«هذا محل [illegible] وهذا [illegible] هو [illegible] وهو [illegible] سنة [illegible] من [illegible] هذا [illegible]»

وترجمتها «ها هنا مدفون اثناسيوس سفر السرياني اسقف ماردين الكامل بالفضيلة رقد بالرب في ٤ نيسان سنة ١٧٢٨م اراح الله نفسهُ في ملكوته»

وكان رحمهُ الله فاضلًا مجيدًا وكاتبًا مجيدًا وخطيبًا فصيحًا متضلعًا بالسريانية والتركيّة والفارسيّة والعربية والايطالية

ومن مآثره الشريفة الجليلة انهُ بذل لُباب السعي في طبع كتاب الفرض اليومي المسمّى الاشحيم لاوّل مرّة وذلك في ايار ١٦٩٦ ليستعمل لكهنة الملة تلاوة الفرض اذ كانوا بعدُ تابعين عوائد اليعاقبة في ذلك. وقد ورد في آخره ما نصهُ: «وكان المهتم في تمّ هذا الكتاب وطبعهِ الحقير في رؤساء الكهنة والاساقفة اثناسيوس سفر اسقف مدينة ماردين . حيث مولده» . ولم تطبع فيه صلاة يوم الاحد بل كان يعوّض عنها بصلاة يوم الاربعاء حتى سنة ١٧٨٧ التي فيها طُبع ثانيةً بهمّة القس الياس بن فتح الله السرياني الاميدي ترجمان اللغة السريانية والكلدانية برومة فزاد عليهِ صلاة يوم الاحد . ثم طُبع ثالثةً برومة ايضًا سنة ١٨١٤ بعناية مار اغناطيوس بطرس جروه . واخيرًا طُبع عام ١٩٠٢ في المطبعة البطريركيّة في دير الشرفة بسعي مار اغناطيوس افرام الثاني بطريركنا المغبوط

ثم صنّف مار اثناسيوس كتابًا سريانيًا سماه «[illegible]» اعني طريق التوبة ومنهُ نسختان في مكتبة دير الشرفة . واعتنى كذلك عام ١٧١١ باستكتاب الطقوس اليعقوبيّة باسرها ونقّحها واعدّها لتُطبع غير ان كثرة المهامّ شغلتهُ عن ذلك . وكان الناسخ تحت يدهِ القس عبد الاحد بن سفر الرهاوي ابن اخي مار بطرس الرابع الذي كان قاطنًا في ديرنا برومة

وصنّف كتابًا ضمّنهُ اخبار السيد پيكات ورحلهُ الى بلاد الفرس وقد اطّلع مار اغناطيوس افرام رحماني بطريركنا المغبوط على نسخة منهُ في المكتبة الواتيكانية في المصحف العربي عدد ٢٣٢ . ولولا كثرة الاسفار الشاقة التي استغرقت اكثر حياتهِ لخلّف ولا جرم لعالم العلم آثارًا اخرى تذكر . نسألهُ تعالى ان يلبسهُ ثوب العفو والغفران ويضمّهُ الى مصاف الصدّيقين والابرار

ونجعل ملك الختام لاخبار هذا الحبر الجليل الشكر الجزيل لجناب الفيكنت فيليب افندي دي طرّازي الذي عُني بجمع تواريخ طائفتنا بدقة واتقان اذ اوقفنا على فوائد جمة تتعلق بصاحب الترجمة

اللغة العربيّة والحركات

للاديب داود افندي صليبا الكلداني

هي عنوان مقالة عنّت لي فيما غبر فأفضتُ فيها من الكلام ما تمنّى للقريحة الميّاء وما حضر و بحثت فيها بحثًا طويلًا مدققًا استقصى شاردها واحاط بوارداها الّا ان بعض الموانع حالت دون نشرها وتصدّت لتاخيرها فحملني الامر على ان افرغها في قالب جديد غير قالبها الاوّل وابرزتها الان بحلي يروق للناظر السليم والراي السديد المستقيم على اني لم آت منتقدًا ولا منددًا بل ابسط رأيًا ارتأيته وافيض من مورد وردته

من البديهي ومما لا مرية فيه ان اللغة العربيّة كانت منتشرة على افواه القبائل في جميع الانحاء والاصقاع العربيّة وعنها أخذت وأثرت وعن افصحها قبيلة اليها نُقلت ألا وهي قبيلة قُريش التي بلغتها وُجد القرآن وعلى حكمها بالفصيح ثبت البرهان على ان اهل البحث والتنقيب في اي عصر كان ومن اية فئة كانوا لم يُبقوا حاجةً في نفس يعقوب من ركوب متن الجدّ والعناد وامتطاء صهوة الصافنات الجياد في النقد فيما نقلوه من اعتمادهم على اللغة الفصحى واثباتها من حيث هي حتى افرغوا كنانة الوسع في تقرير الادلّة العديدة وامتحاض الآراء السديدة في شأن هذه اللغة العزيزة الشريفة فكفوا بذلك مَن بعدهم مؤونة العناء في استقصاء ما عندهم من البحث الطويل فضلًا عن دفع الكلفة والمشقّة عمّن لم يُسعده الحظ بالنظر بناصية الخبرة في اجتياز عقبة هذه الابحاث البعيدة الغور والمنال واستفراغ الجد وتتبُّع اقوال واضعي اللغة و باني صَرح تاريخها واستقراء تلك الآراء والمزاولة في ترجيح هذا على ذاك وذاك على ذلك وانتقاء الاصح والاثبت وسبر غور اقوالهم بمرجاس العقل الثاقب حتى يتمنّى الظفر بالمرغوب وترسخ المسئلة على اسّ الحقيقة الطلوبة التي لا شبهة وراءها . فعدلتُ الان عن المنازلة في هذا الميدان ومِلت عن المكافحة فيه الى ما سيستتبّ لي ان شاء الله من الفرص للتفرغ في البحث عنهُ وان كنت مستغنيًا عن نيل قصب السبق في مضمار